

الوافي في الوفيات

قال : فلم يكن بعد ذلك إلاّ أيام قلائل حتّى توفى C تعالى وأكله الدود . وكتب على كتابي جنان الجناس لمّا وقف عليه :

لقد ضمّ أجناس الجناس فأطربا ... وأعجزَ من باراه فيها فأتعبا .
صلاحُ لدينٍ أبدأ بدائعاً ... تروقُ بألفاظٍ أرقّ من الصّبا .
يراه بليغ جاء بالمدح سائلاً ... مجيزاً مجيباً قوله لا مخيّباً .
بإنشاده هذا وإنشائه لقد ... به فات من قد فاق فضلاً ومنصّباً .
فقسّ إيدٍ عند ذا الفضل ناقلٌ ... ولفظ امرئ القيس البديع هُنّا هبّا .
ومن شعره لمّا أُمسك الأمير سيف الدين كَرَاي المنصور نائب دمشق :
أنا راضٍ بحالتي لا مزيدي ... وبأن أزال عبد الحميد .
إنّ في أمر كافل الملك بالشا ... م عطاتٍ للحازم المستفيد .
جاءه بالتقليد أَرغُون بالأَم ... س وولّى وعاد بالتقييد .
ومنه :

سَلابَ المهجةَ منّي ... بالجفونِ الفاتراتِ .

لم يزور البيت لم يَرُ ... مِ الحشا بالجَمَراتِ .

ومنه :

وكم سرحةٍ لي في الرُّبى زمنَ الصبا ... أشاهدُ مرأى حسنها متملّياً .

ويُسكِرني عَرَفُ الشذا من نسيمها ... فأقضي هوّى من طيبه حتفَ أنفيا .

وأسأل فيها مَدَسِمِ الروض قُبلةً ... فيُبِرز من أكمامه لي أيديا .

فإن روضُ زرتّه متنزّهاً ... فأبدى لعيني حُسن مرأى بلا رِيا .

غدا الغُصن فيه راقصاً ونسيمُهُ ... يكرّسُ على من زاره متعدّياً .

ترجّلتِ الأشجار والماء خَرّاً ... نسيمُ الصّبا أضحى به متمشّياً .

تُغَنّي لديه الوُرُق والغصنُ راقصٌ ... فيعرقُ وجه الأرض من كثرة الحيا .

ومنه :

فَعُدّ نفسك من أهل القبور بها ... فعن قليل إليها سوف تنقلُ .

واذكر مصارع قومٍ قد قضوا ومضوا ... كأنّهم لم يكونوا بعدما رحلوا .

يا ليت شعري ما قالوا وقيل لهم ... وما الذي قد أجابوا عندما سُئلوا .

ومن نثره C تعالى يصف قلعة ذات أودية ومحاجر : لا تراها العيون لبعد مرماها إلاّ

شَزْرًا ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاَّ - نَزْرًا . ولا يظنُّ ناظرها إلاَّ - أنَّها طالعة
بين النجوم بما لها من الأبراج ولها من الفرات خندق يحفُّها كالبحر إلاَّ - أن هذا عذبُ
فراتٍ وهذا ملح أُجاج . ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرَّ الهواجر وقد توءَّرت
مسالكه فلا يُداس فيه إلاَّ - على المحاجر . وتفاوت ما بين مرآه العليِّ وقراره العميق
ويقتحم راكبه الهول في هبوطه فكأَنَّ - ما خرَّ - من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح
في مكان سحيق .

ومنه في صدر كتاب : وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً ولا أعدم الملك منه ناظراً ولا
عينا . ولا زال على الأعداء يرسل من مهايته رقيبين أذناً وعينا . وأغنى بمكارمه من أن
نشيم من السماء خالاً وعينا . أو نَرِدَ من الأرض منهلاً وعينا . وأطلع طلعة لوائه في
الخافقيْن حتَّى تخال لشمس عينا . وسيَر ركائب ذكره في الآفاق لا تشتكي أَيْناً ولا
عينا . وأقام ميزان القسط بين الرعايا لا يجد فيه عيناً ولا عينا . واستبعد لخدمته كلَّ -
أصيدَ من الملوك لكل جفيل قلباً ولكن محفِل عينا . وأهلك كلَّ - عدوِّ له وحاسد تارة
فجأةً وتارة عينا . وأنطق لسانَ كرمه للأولياء بنون وعين وميم إذْ كتب سواه ميماً
ونوناً وعينا . ومدَّ - عَهْهُ بما خصَّه من استجلاء عرائس الحور العيين بمجاهدته إذا شغل
سواه عَيْناً من أسماء وعينا . وسطَّ - آثاره مآثره محكمةً على صفحات الأيام إذْ لم
يُذِقْ لمن سلف من الملوك أثراً ولا عينا .

أبو حيدِّات التوحيدي الشافعي